Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 41:2 (2006)

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية التفسير بالمأثور في الدراسات القرآنية من خلال التفسير المسند لابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)

عيادة بن أيوب الكبيسي

DMHL

الحمد لله الذي تولّى حفظ كتابه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه، وأنصاره وأحبابه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين. وبعد:

فإن المشتغلين بالدراسات التفسيرية والحديثية، يعلمون أن ابن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ) يعدّ عَلَماً بارزاً من أعلام الحديث والتفسير، وإماماً لامعاً من أئمة الجرح والتعديل، وقد اغتنمنا مناسبة ذكراه التي تمرّ بنا هذا العام (١٤٢٧هـ) ـ أي بعد مرور ألف ومائة عام ـ للكتابة عنه وعن تفسيره **المسند**، لما في ذلك من فوائد ومنافع لاسيما في هذه الأيام، إذ الحديث عن تفسيره **المسند** ـ الذي يعدّ على رأس قائمة التفسير بالمأثور ـ بوجه خاص، وعن التفسير بالمأثور بوجه عام، لخير ما يرد به على مثيري الشبه والشكوك حول القرآن الكريم، وجهود سلف الأمة في فهمه وتفسيره.

ثم إن اعتبار التفسير بالمأثور هو الركيزة الجوهرية التي ينبغي أن ينطلق منها كل مفسّر، لخير ما يعصم من الانحرافات التفسيرية التي تفشّت بين المسلمين في عصورهم المتأخرة.

من هذا المنطلق جاء البحث منوّها بهذا الإمام الجليل وبتفسيره **المسند**، ومتحدثا عن أهمية التفسير بالمأثور وعن قيمته، وأنواعه، وحكمه، وبيان مدى الحاجة إليه، محذّراً من هدمه وإلغائه، ومشيداً بالإضافة إليه والبناء عليه، متى ما أمكن ذلك واتسع اللفظ القرآني الكريم له، وفي البحث نماذج لهذا وذاك.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

لا يخفى ما لابن أبي حاتم الرازي رحمه الله تعالى من مكانة بين أهل العلم، ومنزلة لدى العلماء، فلم يكن محدّثا وناقدا فحسب، بل كان مفسّرا مُقدّماً، وله جهود في التوحيد والذبّ عن العقيدة، ومناقشات وردود قوية، ووقوف حازم بوجه الفرق المنتشرة في زمانه، كالمرجئة والجهمية والمعتزلة والقدرية والزنادقة والرافضة والخوارج، وله رسالة قيمة في العقيدة وهي: **أصل السنة واعتقاد الدين**. ولذا فالكلام عن هذا الإمام وإحياء ذكراه العطرة، لا يهمّ المشتغلين بالتفسير فحسب، ولكنه يستدعي اهتمام أهل الحديث والتوحيد.

إن من حقه علينا أن نحتفل بذكراه، لاسيما وأن الأمر لا يختص بأهل التفسير، إنما يدخل معهم أهل الحديث كما يظهر من اسم التفسير المذكور، كيف وابن أبي حاتم إمام الجرح والتعديل، وفارس ميادين النقد والعلل ومعرفة الرجال. فهو الناقد ابن الناقد، وتلميذ أبيه وأبي زرعة الرازي، فهو كما قيل عنه: إمام ابن إمام، قد ربّي بين إمامين: أبي حاتم الرازي وأبي زرعة إمامي هدى[1].

ذاك أن الاهتمام بالرواية في مجال التفسير أصبح من الضرورات الملحة لاسيما في الزمن الذي نعيشه هذه الأيام، بسبب كثرة ما يثار من شبه وشكوك من جهة، وخروج جمع من أبناء هذه الأمة عن جادة الصواب من جهة ثانية، ودعوتهم إلى طرح ما خلّفه لنا السلف من كنوز ومعارف، بدعوى التجديد والتطوير، غير مفرّقين بين الهدم والبناء!! فالتطوير عندهم لا بد أن يبدأ من الصفر، وفي ذلك من الضياع للأمة ما فيه كما لا يخفى.

هذان السببان ـ ذكرى وفاة الإمام الجليل، وهذا الجنوح عن تراثنا الخالد ـ دفعاني إلى كتابة هذا البحث، عِلْماً بأني لم أقف على من أفرد هذا الموضوع بالبحث والتأليف، فلم يزل ـ على مدى علمي ـ مبثوثا في بطون الكتب، ومفرّقا في ثنايا البحوث والمقدّمات.

المبحث الأول: المأثور وابن أبي حاتم الرازي:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التفسير المأثور، وبيان المراد به:

أما التفسير لغة: فإن محور مادته هو الكشف والإيضاح، ومنه قول تعالى: ﴿**وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[2] فالفسر الإبانة وكشف المغطى، يقال: فسرت اللفظ

١- انظر: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت: ٣٦١/٣٥.

٢- سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

فسراً، من باب ضرب ونصر[٣]، وقال الراغب: الفَسْر والسَّفْر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول، وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح[٤].

وأما اصطلاحا: فقد تعددت تعريفاته، ولعل أحسنها وأجمعها قول من قال: "هو علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"[٥].

و ترجيح هذا التعريف على غيره لأمرين:

الأول: كونه مختصراً وجامعا مانعا.

الثاني: لقيد بقدر الطاقة البشرية، إذ الوصول إلى مراد الله تعالى متعذّر، وللاحظته الغاية من نزول القرآن الكريم.

وأما المأثور، لغة: فهو مأخوذ من الأثر، وهو بقية الشيء، جمعه آثار وأثور، والأثر: مصدر قولك أثرت الحديث آثره، إذا نقلته عن غيرك ورويته، ومن هنا قيل: حديث مأثور أي يخبر الناس به بعضهم بعضاً أي ينقله خلف عن سلف[٦].

واصطلاحا: ما جاء في القرآن الكريم نفسه، أو ما نقل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أو عن أصحابه رضي الله تعالى عنهم بيانا لمراد الله تعالى من كتابه[٧].

المطلب الثاني: نبذة مختصرة عن الإمام ابن أبي حاتم الرازي رحمه الله تعالى.

أمّا الإمام الجليل فهو الحافظ الناقد أبو محمد، عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي[٨].

غير أني سأكتفي في هذا المقام نقطتين من حياته الحافلة بالجدّ والنشاط، أرى أن في ذكرهما ما يعود علينا بالنفع والفائدة إن شاء الله.

٣- انظر: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٥٦/٢ و علي بن محمد الجرجاني، **التعريفات**، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٨٧.

٤- انظر: الراغب الأصفهاني، **مقدّمة التفسير**، ص ١٦٢، و **مفردات القرآن له**، ص ٦٣٦ مادة: فسر.

٥- انظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت: ٦/٢.

٦- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**: ٦٩/١، و **القاموس المحيط**: ٦٨٢/١ مادة: أثر.

٧- انظر: **مناهل العرفان**: ١٢/٢، و محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٥٢/١.

٨- للوقوف على ترجمته المفصّلة، يرجع إلى كتب التراجم، ومن أهمها: **تاريخ مدينة دمشق**، و**سير أعلام النبلاء**، و **البداية والنهاية**، و **تذكرة الحفاظ**، وغيرها.

الأولى: حرصه على الطلب.

فقد قالوا في الحكم: قيمة الإنسان همّته، وقالوا: بالهمّة تنال ما تريد. ولقد كان ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى ذا همّة عليا في طلب العلم، وحرص شديد على تحصيله، وقد سهّل له ذلك وجوده مع أبيه وملازمته له، فكان لا يضيع شيئاً من وقته مع أبيه، كان يسأله وهو يأكل أو يمشي أو نحو ذلك[٩]. ومما يدل على هذا الحرص ما حدّث به عن نفسه حيث قال: حضرت أبي ـ رحمه الله ـ وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عقبة بن عبد الغافر يروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم هل له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه، فقلت: فهمت عنّي، هل له صحبة؟ قال: هو تابعي[١٠]!!

وأما الحكاية الظريفة التي حكاها عن نفسه وهو بالإسكندرية، فتمثّل الحرص في منتهاه، وخلاصتها ما قال: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، كل نهارنا مقسم لمجالس الشيوخ، وبالليل النسخ والمقابلة، فأتينا يوما أنا ورفيق لي خُراساني شيخاً فقالوا: هو عليل، فرجعنا فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى المنزل حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فلم يمكننا إصلاحها، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليها ثلاثة أيام وكادت أن تتغيّر فأكلناها نيئة، فقيل له: كنتم تعطونها لمن يشويها ويصلحها قال: من أين كان لنا فراغ! وكان يقول رحمه الله تعالى: لا يستطاع العلم براحة الجسم[١١]! نكتفي بهذا لننتقل إلى النقطة الثانية.

الثانية: زهده وتقواه:

لم يكن تحصيل العلم وكسبه هو المقصد الوحيد في الإسلام، بل إن ذلك لا بد أن يكون ممتزجا بتقوى الله تعالى، وإلا فقد يكون العلم وَبَالاً على صاحبه، ومن حِكَمِ الشعر:

لو كان للعلم دون التُّقَى شرفٌ لكان أشرف خلق الله إبليس

ولذا فقد كان أسلافنا من أهل العلم رحمهم الله تعالى يحرصون على اكتساب التقوى مع العلم، ولحكمة قدّم الله تعالى التزكية على العلم في إجابة دعوة الخليل عليه السلام، فإنه عليه السلام عندما دعا فقال ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيْهِمْ رَسُوْلاً مِّنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ**

٩- انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤط، مؤسسة الرسالة: ٢٥١/١٣.

١٠- انظر: ابن أبي حاتم الرازي، **الجرح والتعديل**، دائرة المعارف العثمانية، الهند: ٣٦٧/١-٣٦٨.

١١- انظر: **تاريخ مدينة دمشق**: ٣٦١/٣، و **سير أعلام النبلاء**: ٢٦٦/٣، والذهبي، **تذكرة الحفاظ**، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٨٣/٣.

﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾(١٢)، قدّم العلم، لكن الله تعالى قدّم التزكية في إجابة الدعوة في ثلاث آيات فقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيْكُمْ رَسُوْلاً مِّنْكُمْ يَتْلُوْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَّا لَمْ تَكُوْنُوْا تَعْلَمُوْنَ﴾(١٣) ومثلها في آل عمران في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِيْ ضَلالٍ مُّبِيْنٍ﴾(١٤)، وسورة الجمعة(١٥).

لقد كان ابن أبي حاتم على جانب كبير من التقوى، وقد شهد له العلماء بذلك، يقول أبوه الذي كان يلازمه ملازمة منقطعة النظير ـ رحمهما الله تعالى: ومن يقوى على عبادة عبد الرحمن، لا أعرف لعبد الرحمن ذنبا(١٦). ويقول علي بن إبراهيم الرازي الخطيب: رجل منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة، ما انحرف عن الطريق ساعة واحدة!!

وأقوال العلماء فيه كثيرة، فلنكتف بهذا، ولننقل هذه الحكاية الدالة على ورعه رحمه الله وشدة خوفه من الله تعالى وخشيته له:

قال ابن معين يوما: "إنا لنطعن على أقوام لعلهم حطّوا رحالهم في الجنّة منذ أكثر من مائتي سنة، فحفظها أبو بكر بن مهرويه الرازي قال: فدخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم وهو يقرأ على الناس كتابه **الجرح والتعديل**، فحدّثته بهذه الحكاية فبكى، وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب من يده، وجعل يبكي ويستعيدني الحكاية، ولم يقرأ في ذلك المجلس شيئاً"(١٧).

ومما ينبغي ذكره هنا أن الإمام الذهبي فسّر سرّ بكائه فقال: "أصابه على طريق الوجل وخوف العاقبة، وإلا فكلام الناقد الورع في الضعفاء من النصح لدين الله، والذبّ عن السنّة"(١٨).

١٢- سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

١٣- سورة البقرة، الآية: ١٥١.

١٤- سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

١٥- سورة الجمعة، الآية: ٢.

١٦- انظر: **تذكرة الحفاظ**: ٨٣١/٣.

١٧- انظر: الخطيب البغدادي، **الكفاية**، مطبعة السعادة، مصر، ص ٨٢-٨٣، السبكي، **طبقات الشافعية**، تحقيق الطناحي الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر: ٣٢٦/٣، **سير أعلام النبلاء**: ٢٦٨/١٣.

١٨- انظر: **سير أعلام النبلاء**: ٢٦٨/١٣.

أقول: هذا تفسير حسن من الإمام الذهبي رحمه الله تعالى، وتنبيه مهم، لئلا يتوهم أن الكلام في الرجال من الغيبة المحرّمة.

ولا يفوتنا أن نذكر حفظه لكتاب الله تعالى وإتقانه له، لما لذلك من أهمية واضحة في التفسير، لاسيما التفسير المأثور، وتفسير القرآن بالقرآن على وجه الخصوص، حيث إن استحضار الآيات، ومعرفة ما تقدّم وما تأخّر، وربط أجزاء القصة الواحدة، أو قصة بقصة، أمر مهم في تسهيل التفسير واستذكار الروايات المتقدّمة.

وفي هذه الشذرات والإشارات غنية وكفاية في معرفة ما كان عليه ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى من التحلّي بطلب العلم الممزوج بخشية الله تعالى وتقواه، الأمر الذي لا يستغني عنه طالب علم، لاسيما لمن يشتغل بالعلوم الشرعية.

المطلب الثالث: تفسيره المسند، وأهم ما جاء في منهجه:

يعدّ تفسير القرآن العظيم للإمام ابن أبي حاتم الرازي مسنداً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، من أهم كتب التفسير بالمأثور، إن لم يكن أهمها، وذلك: لما امتاز به من منهج دقيق، أفصح عنه في مقدّمته حيث قال: "فتحريت إخراج ذلك بأصح الأخبار إسناداً، وأشبعها متناً، فإذا وجدت التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أذكر أحداً من الصحابة ممن أتى بمثل ذلك، وإذا وجدته عن الصحابة، فإن كانوا متفقين ذكرت أعلاهم درجة بأصح الإسناد، وسمّيت موافقيهم بحذف الأسانيد، وإن كانوا مختلفين ذكرت اختلافهم، وذكرت لكل واحد منهم إسناداً، وسمّيت موافقيهم بحذف الأسانيد، فإن لم أجد عن الصحابة ووجدته عن التابعين، عملت فيما أجد عنهم ما ذكرته من المثال في الصحابة، وكذا أجعل المثال في أتباع التابعين وأتباعهم، جعل الله ذلك لوجهه خالصاً، ونفع به"(١٩).

وهذا كما ترى منهج دقيق محكم، قلّما تجده في كتب التفسير بالمأثور، فابن جرير مثلا كان يجمع من الأسانيد ما وقف عليه غير مميّز بين صحيح وسقيم، وكذا من المتون غير مفرّق بين طويل وقصير. واقتصار ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى على المأثور هو الذي سوّغ لنا أن نجعله على رأس قائمة المفسّرين بالمأثور، فابن جرير مثلاً وإن كان تفسيره **جامع البيان** معدوداً في كتب التفسير بالمأثور بل من أمهاتها، إلا أنه لم يقتصر فيه على المأثور، وإنما ضمّ إلى ذلك المعقول، وإنا لنجد في طيّات

١٩- انظر: ابن أبي حاتم الرازي، **تفسير القرآن العظيم** (مقدّمته)، تحقيق أسعد الطيب، مكتبة الباز، مكة المكرمة: ١/١٤٤-١٤٥.

تفسيره من القراءات وتوجيهها، والنحو والإعراب واللغة والشعر القديم، ومسائل الكلام، والفقه والاستنباط والمناقشة والترجيح الشيء الكثير، حتى كان ـ كما يقول الدكتور الذهبي ـ نقطة التحوّل في التفسير، ونواة لما وجد بعد من التفسير بالرأي(٢٠)، في حين أنا لا نجد في تفسير ابن أبي حاتم شيئاً من ذلك، حيث لم يمزج المأثور بغيره من ألوان التفسير، فأصبح بحق على رأس قائمة التفسير بالمأثور، ومن هنا جاءت أهميته في هذا الباب، أضف إلى ذلك شرطه الدقيق في منهجه المتقدّم.

وهو القائل رحمه الله تعالى: "فإن قيل: كيف السبيل إلى معرفة ما ذكرت من معاني كتاب الله عز وجل، ومعالم دينه؟ قيل: بالآثار الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه النجباء الألباء، الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل رضي الله عنهم، فإن قيل: فبماذا تعرف الآثار الصحيحة والسقيمة؟ قيل: بنقد العلماء الجهابذة، الذين خصّهم الله عز وجل بهذه الفضيلة، ورزقهم هذه المعرفة في كل دهر وزمان(٢١).

ومما يؤسف عليه أن يظهر هذا التفسير في طبعته الأولى بصورة غير مرضية(٢٢)، حيث قد امتلأ بالأخطاء المتعددة لا أقول أخطاء طباعية، ولكنها أخطاء علمية في الأسانيد والمتون! وقد تبيّن لي ذلك يوم قمت بتحقيق تفسير سورة يونس عليه السلام، حيث تحصّل لي بعد المقابلة من الأخطاء كَمٌّ لا يكاد يُصدَّق، فقد بلغ ٤٣٠ أربعمائة وثلاثين خطأ في ٧٢ اثنتين وسبعين صفحة(٢٣)! وهذه الأخطاء شملت الأسانيد والمتون، وربما وقع في الأثر الواحد عدة أخطاء، وشملت أيضا إسقاط بعض الرجال والكلمات والجمل بل والآثار المتعددة، وقد يطول السقط فيبلغ نحو ثلاثة أسطر! أضف إلى التصرف العجيب في عبارات المؤلف، بل والتلاعب في سياق الأسانيد، وعدم تصحيح الأخطاء التي وقعت في المخطوط، وربما حتى لو كانت في الآيات القرآنية، بله النحوية والإملائية، وقد يقوم المحقق بالتصحيح دون الإشارة إلى ذلك ! وقد ذكرت بعض الأمثلة لتلك الأخطاء المتنوعة التي اشتملت عليها الطبعة الأولى، مقتصراً على المقارنة فيما يتعلق بتحقيق تفسير سورة يونس عليه السلام(٢٤).

٢٠- انظر: **التفسير والمفسرون**: ٢٢٢/١.

٢١- انظر: **مقدّمة الجرح والتعديل**: ٥،٢/١.

٢٢- هي الطبعة التي نشرتها مكتبة نزار الباز بمكة المكرمة سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م بتحقيق أسعد محمد الطيب.

٢٣- أنبّه هنا إلى أن المخطوطات التي حققت تحقيقاً غير علميّ ـ تجاري أو نحوه ـ، ينبغي أن تكون أَوْلَى بالتحقيق من غيرها، وذلك لتلافي الأخطاء قبل أن يتلقّفها الباحثون من حيث لا يشعرون.

٢٤- انظر: ابن أبي حاتم الرازي، **تفسير سورة يونس عليه السلام**، تحقيق عيادة بن أيوب الكبيسي، دار ابن حزم، بيروت، ص ٦٧-٧٥.

هذا وقد تعهدت دار ابن الجوزي بطباعة تفسير ابن أبي حاتم كاملا، فنرجو أن تكون الطباعة على المستوى المطلوب، وأن تكون هذه الطبعة سليمة من الأخطاء والعيوب، لاسيما وأنها تقوم بإخراج الرسائل الجامعية المنقحة التي خدم بها التفسير خدمة جيدة.

ومن تفاسير المأثور المهمة التي نقلت إلينا: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** للإمام ابن جرير الطبري، الذي يعدّ أعظم التفاسير وأجلها وأنفعها، لما اشتمل عليه من العلوم المتنوعة، من القراءات والإعراب والفقه والاستنباط، وتوجيه ما ينقله من الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ولذا فقد أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف مثله، كما يقول الإمام السيوطي، الذي نقل عن الإمام النووي رحمهم الله تعالى أنه قال في **تهذيبه**: "كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله"(٢٥).

والتفسير **المسند** لابن أبي حاتم الرازي، الذي يقول عنه ابن كثير: "وله التفسير الحافل، الذي اشتمل على النقل الكامل، الذي يربو فيه على تفسير ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين إلى زماننا"(٢٦). غير أن تفسير ابن أبي حاتم لم يصل إلينا منه إلا إلى سورة العنكبوت، وما سوى ذلك تمّ جمعه من متفرّقات كتب الحديث والتفسير وغيرها، التي كانت تعنى بالنقل عن ابن أبي حاتم، ومن أشهرها: **تفسير ابن كثير** و **فتح الباري** و **فتح القدير**(٢٧).

ولدى المقارنة بين التفسيرين لهذين الإمامين الجليلين رحمهما الله تعالى، نرى أن أَوْلاَهُمَا بوصف التفسير بالمأثور هو تفسير ابن أبي حاتم، ذاك لأن ابن جرير لم يقتصر على المأثور ـ كما تقدّم ـ وإنما ضمّ إليه علوما أخرى، وله اجتهادات في التفسير وترجيحات متنوعة، في حين أن ابن أبي حاتم كما تقدّم في منهجه لم يخلط المأثور بغيره، وليس له من تصرّف فيه إلا حسن الانتقاء وجودة الاختيار كما قال وهو يوضّح منهجه: "أشبعها متناً وأصحّها إسناداً"، فإن لم يقف على شيء من المأثور في تفسير الآية، تركها بدون تفسير، وكتب أمامها عبارة (بياض)، كما هو في نسخ المخطوط.

٢٥- انظر: عبد الرحمن السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمود القيسية ومحمد أشرف الأتاسي، مؤسسة النداء أبوظبي: ٤٠٤/٤، والنووي، **تهذيب الأسماء واللغات**، دار الكتب العلمية، بيروت: ٩٥/١.

٢٦- انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت: ١٩١/١١.

٢٧- وقد كانت رسالة ولدنا الدكتور محمد حفظه الله في الدكتوراه في القسم المفقود من هذا التفسير، "من سورة الروم إلى آخر سورة الأحزاب"، كما قد قام بإكمال بقية التفسير حتى آخر تفسير سورة الناس.

فلو أنا دققنا وجعلنا القسمة ثلاثية: المأثور والرأي وما يجمع بينهما، لما وسعنا إلا أن نجعل تفسير ابن أبي حاتم في المأثور، وتفسير ابن جرير الطبري فيما يجمع بينهما، غير أن ملاحظة وصف الغلبة سوغ جعل تفسير ابن جرير في المأثور.

المبحث الثاني: أهمية التفسير المأثور، وأنواعه:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قيمة التفسير المأثور وأهميته:

بعد الوقوف على تعريف التفسير المأثور وبيان المراد به، تتجلّى لنا مدى أهميته، وضرورة العناية به، والوقوف عنده، والحذر من تجاوزه، وندرك أنه من أفضل أنواع التفسير، ولذا فقد كانت العناية به مبكّرة، فكان أول علوم القرآن تدوينا، وكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول في هذا(٢٨).

ومما يدل على أهمية هذا النوع من التفسير، أنه سنام معرفة معاني القرآن وإدراك مراميه، وأنه لا بد منه لمن أراد أن يستجيب لله تعالى فيتدبّر كلامه، وكذا لمن أراد أن يفسّر بالرأي يتحتم عليه أن يطلع على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني ونحوها من العلوم اللازمة، وهذه كلها لا تؤخذ إلا بالنقل الصحيح عن التفسير بالمأثور بل هي نابعة منه(٢٩).

إن قيمة هذا التفسير وأهميته إنما ترجع إلى قيمة مصادره الأصلية وأهميتها، ولا يخفى على الباحثين في الدراسات القرآنية، أن تلك المصادر هي أحسن طرق التفسير بلا خلاف كما نص على ذلك علماء علوم القرآن.

أما ما ثبت في القرآن نفسه، فأمره واضح إذ هو قول الله تعالى، والله جل وعلا أدرى بأسرار كلامه، وهو سبحانه وتعالى أعلم بمراد نفسه من غيره(٣٠)، ولذا فقد عد العلماء هذا اللون من التفسير في الدرجة الأولى، وأنه من أعلى المصادر وأجودها، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "إن أصح الطرق في ذلك ـ أي في التفسير ـ: أن يفسّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر"(٣١).

٢٨- انظر: نور الدين العتر، **علوم القرآن الكريم**، مطبعة الصباح، دمشق، ص ٧٤.

٢٩- انظر: حكمت بشير، **التفسير الصحيح**، دار المآثر، المدينة النبوية: ١/٥.

٣٠- انظر: **مناهل العرفان**: ٢/١٣.

٣١- انظر: ابن تيمية، **مقدّمة في أصول التفسير**، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الكويت، وطبعة منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ص ٩٣.

وإذا علمنا أن تفسير القرآن بالقرآن لا يعني تفسير المفردات والجمل فحسب، وإنما يعني وجوها أخر من مثل: تفسير العام بالخاص، والمطلق بالمقيد، والمجمل بالمبيّن، وتفسير ما جاء موجزاً بما جاء مطنبا، وتفسير إشكالات معيّنة، ونحو ذلك. إذا علمنا هذا أدركنا أن ثمّة قدراً لا بأس به يمكن تحصيله من هذا اللون من التفسير.

ومثل هذا يقال في تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم، الذي يأتي في الدرجة الثانية من ألوان التفسير، إذ هو المكلف بالبيان والشرح، وأن خير الهدي هديه صلى الله عليه وسلم، مع أنا نقطع بعصمته وتوفيقه صلى الله عليه وسلم(٣٢)، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ** ﴾(٣٣).

ومن المعلوم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يجيب على ما يوجه إليه من أسئلة تتعلق ببيان القرآن، سواء من أصحابه رضي الله تعالى عنهم بطلب حل ما أشكل عليهم وتوضيح ما أبهم من ألفاظ الذكر الحكيم، وإن كان هذا على ندرة إذ هم العرب الخلص الذين لا يخفى عليهم كثير من ألفاظ القرآن الكريم، أو من أهل الكتاب والمشركين الذين كانوا يسألون للاستفسار أو الاختبار أو لمجرد التعنّت والعناد.

وما قيل عن وجوه تفسير القرآن بالقرآن، يقال مثله في التفسير بالسنّة، كتفسير المفردات والجمل، والتفسير بتقييد المطلق، وتخصيص العام، وتوضيح المشكل، وبيان المجملات، وبيان ما في القصص القرآني ..إلخ. وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من هذا النوع من التفسير جملة مباركة، تولت كتب السنّة من الصحاح والسنن والمصنفات والمسانيد بيان ذلك.

ويأتي بعد هذين المصدرين المصدر الثالث وهو تفاسير الصحابة رضي الله تعالى عنهم، التي تقع في الدرجة الثالثة، والتي اشتملت على تفاسير كثيرة كانت الحاجة قد اشتدت إليها في زمانهم، لأسباب كثيرة منها(٣٤):

اتساع رقعة الإسلام، واختلاط العرب بغيرهم، مما أدّى إلى اختلاط الثقافات الوافدة مع المسلمين الجدد بالثقافة الإسلامية وخاصة ثقافة أهل الكتاب اليهود والنصارى، وفلسفة الشرق المتمثلة بالمجوس وغيرها، ودخول أناس جدد من غير العرب في الدين الحنيف، ونشوء جيل من أبناء

٣٢- انظر: **مناهل العرفان**: ١٣/٢.

٣٣- سورة النحل، الآية: ٤٤.

٣٤- انظر: مصطفى مسلم، **مناهج المفسرين في عصر الصحابة**، دار المسلم، الرياض، ص ٤١.

الصحابة رضي الله تعالى عنهم وغيرهم لم يعايشوا الوحي ولم يشهدوا وقائع التنزيل، فهذه الأسباب وغيرها جعلت الحاجة ماسة إلى الرجوع إلى الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لمعرفة الحق من الباطل، وتمييز الصحيح من غيره. وتتجلى لنا قيمة تفاسير الصحابة رضي الله تعالى عنهم بكونهم[٣٥]:

- شاهدي عيان لأحوال الوحي وقرائنه وأسبابه.
- أهل اللسان العربي، وأصحاب البلاغة والفصاحة والبيان.
- أعلم الناس بعادات العرب وأحوالها وأخبارها.
- الجيل المثالي الذي لم يشهد التاريخ مثيلا لهم في علمهم وإدراكهم وسعة نظرتهم لأمور الحياة والكون والإنسان.
- صفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم، وشدة إخلاصهم.
- كبير محبتهم لنبيّهم صلى الله عليه وسلم، وعظيم تضحيتهم لنشر دينهم.

حتى إن الحاكم أطلق القول بأن ما صحّ وروده عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم له حكم المرفوع[٣٦]، إلا أن غيره قيّده بما كان في بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأي فيه، وإلا فهو من الموقوف، قال الزرقاني بعد أن نقل ما تقدّم عن الحاكم: "ووجهة نظر الحاكم ومن وافقه، أن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا وعاينوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معاني الكتاب، ولهم من سلامة فطرتهم، وصفاء نفوسهم، وعلو كعبهم في الفصاحة والبيان، ما يمكّنهم من الفهم الصحيح لكلام الله، وما يجعلهم يوقنون بمراده من تنزيله وهداه[٣٧].

أضف إلى هذه التفاسير تفاسير أكابر التابعين، ممن شاهدوا الصحابة وأخذوا عنهم، وأضافوا إلى التفسير ما دعت إليه الحاجة في زمانهم. وبذلك يتحصّل عندنا تفسير مبارك من التفسير المأثور، الذي متى ما صح لزم الوقوف عنده، إذ هو أصح أنواع التفسير، وأولاها بالقبول. والحمد لله فقد حفظ كثير من تلك التفاسير، وحتى المفقود منها نجد قدراً لا بأس به منه مبثوثا في ثنايا الكتب التي تعنى بالمأثور.

٣٥- انظر: خالد عبد الرحمن العك، **أصول التفسير وقواعده**، دار النفائس، ص ١١٧.

٣٦- انظر: **معرفة علوم الحديث**، ص ٢٠، وأبو عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، مطابع النصر الحديثة، الرياض: ٢٧/١، ١٢٣، ٥٤٢.

٣٧- انظر: **مناهل العرفان**: ١٣/٢، وانظر بدر الدين الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق يوسف المرعشلي وغيره، دار المعرفة، بيروت: ٢/ ٢٩٣.

وقد أحسنت بعض الجامعات الإسلامية، في عنايتها بتلك التفاسير حيث كلّفت طلبتها في جمع كثير منها، وتسجيل رسائلهم العلمية "الماجستير والدكتوراه" في ذلك، وكان لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، النصيب الأوفر من ذلك. ولكن من المؤسف أن تلك الرسائل القيّمة لم تزل حبيسة الرفوف في تلك الجامعات، فلم يطبع الكثير منها إلى الآن. من هنا أتقدّم باقتراح إلى دور البحث العلمي ومراكزه في العالم الإسلامي أن تعنى بالتعاون مع تلك الجامعات، والعمل على طباعة تلك الرسائل ليعمّ النفع بها. والحق أن هذا التراث الضخم يحتاج إلى جهود جبّارة، وتكاتف كبير، من أجل التنسيق والترتيب، وإخراجه على صورة مرضية تمتاز بالجودة والإتقان.

التفسير المأثور ليس محض نقل:

ويجدر التنبيه هنا إلى أن التفسير بالمأثور لا يعني محض النقل، فلا يقال إنه لا جهد يذكر لمن يفسّر به، وأن عمله مقصور على نقل الأقوال، وجمعها في مكان واحد، دون إعمال الفكر والتأمّل، هذا غير صحيح، بل للعقل دخل فيه.

وذلك أن التفسير المأثور إن كان من النوع الأول وهو تفسير القرآن بالقرآن، فإنه لا يمكنه ذلك دون تأمل دقيق، وفكر ثاقب، سواء كان من باب تفسير آية بآية، أو من باب تفسير العام بالخاص والمطلق بالمقيد ونحو ذلك، فكله يتوقف على التروي والتأمل، ولكن لا بد من أن نفرّق بين تفسير القرآن بالرأي، وبين استخدام العقل في بيان تفسير القرآن بالقرآن، فتأمل(٣٨).

وإن كان من تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم أو الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فإن للعقل أيضاً دخلا في تمييز الصحيح من غيره، وتمحيص الروايات، والموازنة والترجيح، لينقل نقل المتدبّر المتبصّر، ولا يكون كحاطب ليل فينقل ما صح وما لم يصح، أو يضع الشيء في غير موضعه!! كما هو شأن بعض التفاسير التي ملئت بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وبالإسرائيليات الباطلة التي لا يؤيدها شرع ولا عقل. ولذا فإنا حينما ندعو إلى اعتماد المأثور، لا نريد بذلك اعتماده على كل حال وكيفما ورد، إنما نريد اعتماداً قائماً على النظر والتأمل والتمحيص والنقد.

٣٨- ولذا فإنه لا يقطع بصحة هذا اللون من التفسير إلا إذ كان الذي فسّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو وقع عليه الإجماع، أو صدر عن أحد الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولم يُعلَم له مخالف. انظر: خالد بن عثمان السبت، **قواعد التفسير جمعاً و دراسة**، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، الخبز، السعودية العربية، ط/١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م: ١٠٩/١.

المطلب الثاني: أنواع التفسير المأثور وحكمه:

الحديث عن أنواع التفسير المأثور أمر مهم، لا يصح أن نغفله ونحن نتكلم عن أهميته وبيان منزلته، وذلك لئلا نجانب الحقيقة، ونبتعد عن الصواب، حيث إن الناظر في التفسير المأثور يجد آثارا كثيرة لا يمكن أن تقبل بحال لظهور بطلانها، ولذا كان لا بد من تقسيم التفسير المأثور إلى نوعين:

الأول: ما صح سنده بنقل الثقات العدول.

والثاني: ما كان بخلاف ذلك.

فكل ما تقدّم من بيان الأهمية ووجوب القبول، والتحذير من الرد والإهمال والإغفال إنما هو للنوع الأول. أما الثاني: فيجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به، إلا لتمحيصه والتنبيه على ضلاله وخطئه حتى لا يغترّ به أحد(٣٩).

ولا يخفى أن أعداء الإسلام قد أبلوا بلاءً سيّئاً في دس الخرافات والأباطيل والإسرائيليات، ومثلهم جهلة المسلمين من القصاص والمذكرين(٤٠)، مما أدى إلى التباس الحق بالباطل، واختلاط الصحيح بالسقيم، الأمر الذي اقتضى مزيدا من البحث والتأمل، ودراسة الأسانيد والمتون، وقد أبلى جهابذة النقّاد والمحدّثين بلاء حسنا في تمحيص الروايات ونقدها، بما أعاد للتفسير المأثور نقاءه وصفاءه، وبوّأه مكانته اللائقة به، مما سهّل على الباحثين معرفة ما صح منه وما لم يصح فجزاهم الله تعالى خير الجزاء بما ذبوا عن الدين ونافحوا عن هدي سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

بعد كل ما تقدّم من تعريف التفسير المأثور، وبيان أهميته ومنزلته وأنواعه، يجدر بنا أن نبيّن حكم هذا التفسير، وهل يجب الأخذ به والوقوف عنده أم لنا أن نتجاوزه إلى غيره؟ وذلك ببيان آراء العلماء والنظر في أحكامهم.

يقول الإمام البغوي رحمه الله تعالى وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ**﴾(٤١): "أراد بالذكر الوحي، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم مبيّنا للوحي، وبيان الكتاب يطلب من السنّة"(٤٢).

٣٩- انظر: **مناهل العرفان**: ٢٢/٢، فقد عدّ النوع الأول من أقوى العوامل المساعدة على الاهتداء بالقرآن.

٤٠- انظر بحثنا: القص بين الهدف النبيّل والانحراف المسيء، المنشور في **حولية الجامعة الإسلامية العالمية** بإسلام آباد، العدد الأول سنة ١٤١٤هـ.

٤١- سورة النحل، الآية: ٤٤.

٤٢- انظر: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، **معالم التنزيل**، تحقيق خالد العك مروان سنوار، دار المعرفة، بيروت: ٧٠/٣.

ويقول الإمام الثعالبي رحمه الله تعالى: "وليس لأحد مع الحديث إذا صح نظر"(٤٣).

وقد تقدّم كلام ابن تيمية(٤٤) في هذا الخصوص ـ وهو يبيّن أصح طرق التفسير ـ وقد نقل كلامه ورضيه ابن كثير والسيوطي وغيرهما رحمهم الله تعالى جميعا.

وأما المعاصرون، فيقول الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي: يجب الأخذ بالتفسير بالمأثور إذا صحّ، ولا يجوز العدول عنه والله تعالى أعلم(٤٥).

ويقول الدكتور محمد زغلول: ولذا فقد اتفق العلماء على حجة الاعتماد على التفسير بالمأثور والأخذ به، إذا كان هذا المأثور الذي يفسّر به القرآن قرآنا، أو سنّة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما قول الصحابة والتابعين فمن العلماء من قال بالاعتماد على أقوالهم في تفسير القرآن، وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء المفسّرين، وهو الأقرب إلى الصواب كما أرى(٤٦)، ثم نقل قول ابن كثير: "إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنّة، رجعنا إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال"(٤٧).

أقول: ذكر التابعين مع الصحابة في اعتماد التفسير فيه نظر، حيث إن الراجح أن أقوال التابعين ليست حجة في التفسير ـ إلا إذا أجمعوا ـ(٤٨)، ولذا نرى أن الحافظ ابن كثير اقتصر على ذكر الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

المطلب الثالث: التفسير المأثور عصمة من كثير من الانحرافات التفسيرية:

لا يخفى على المشتغلين بالدراسات القرآنية أن التفسير مرّ بمراحل عبر القرون، كما لا يخفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المفسّر الأول لكتاب الله تعالى، وأنه إمام وشيخ

٤٣- انظر: عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، **الجواهر الحسان**، تحقيق محمد الفاضلي، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ط/١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م: ٢٤٨/٣.

٤٤- انظر ص ١٠ في هذا البحث.

٤٥- انظر: فهد بن عبد الرحمن الرومي، **بحوث في أصول التفسير ومناهجه**، مكتبة التوبة، الرياض، ص ٧٨.

٤٦- انظر: محمد زغلول، **التفسير بالرأي ـ قواعده وضوابطه وأعلامه**، مكتبة الفارابي، دمشق، ص ١٠٥.

٤٧- انظر: **مقدّمة تفسير ابن كثير**، دار إحياء الكتب العربية، بيروت: ٣/١.

٤٨- قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه: **مقدّمة في أصول التفسير**، ص ٤٥-٤٦: أقوال التابعين ليست حجة في الفروع، فكيف تكون حجة في التفسير.

المفسّرين بالمأثور على الإطلاق، غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يفسّر كل القرآن[٤٩]، إنما فسّر ما دعت الحاجة إليه في زمانه، وأجاب على الأسئلة التي وجّهت إليه صلى الله عليه وسلم إن رأى فيها مصلحة وإليها حاجة[٥٠]. وقد أخذ أصحابه عنه التفسير، وزادوا عليه ما دعت إليه الحاجة في زمانهم رضي الله تعالى عنهم.

ولا يخفى أيضاً أن هذه الأصول الثلاثة في التفسير ـ تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بسنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وتفسيره بأقوال الصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ لم تستوعب كل القرآن، وأن الحاجة تدعو إلى مزيد من التفسير كلما تقدّم الزمن، وأن كتاب الله تعالى لم يزل ذا عطاء متجدّد مهما امتدت بالناس الحياة[٥١].

من هنا أصبح لزاماً على من أراد اقتحام لجّة هذا البحر الزخّار، من إجادة فن العوم والسباحة، خشية أن تضربه أمواج القرآن فيغرق ويهلك. وهذه الإجادة ترتكز على ناحيتين:

الأولى: توافر شروط المفسر، وفق ما ذكره علماء علوم القرآن[٥٢].

الثانية: الانطلاق من التفسير المأثور، إذ هو الركيزة التي لا يصح تجاوزها بحال.

"فالتفسير بالمأثور هو القاعدة الأساسية، والركيزة الجوهرية، التي ينبغي أن ينطلق منها كل مفسر"[٥٣]، وفي هذا يقول الإمام القرطبي وهو يتكلم عن وجوه منع تفسير القرآن بالرأي: "والوجه الثاني: أن

٤٩- هذه مسألة دار حولها جدل كبير بين أهل العلم، وفي المقدار الذي فسّره رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنتيجة التي ترتاح إليها النفس: أنه صلى الله عليه وسلم فسّر قدرا لا بأس به، ثم ترك لأهل كل عصر يفهمون من كتاب الله تعالى ما يناسبهم، وفق الشروط المعلومة التي ذكرها العلماء بهذا الخصوص. انظر بحثنا: تدبّر القرآن بين المنهج الصحيح والانحرافات المعاصرة، المنشور **بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية** بدبي، العدد التاسع عشر سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٥٠- لقد كان صلى الله عليه وسلم حكيما في الإجابة عما سئل عنه، وذلك في اختيار الألفاظ التي تناسب عصره ولا تكون حجرا على من بعده، كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يجب عن كل ما سئل عنه، وذلك من دلائل نبوّته صلى الله عليه وسلم على ما لا يخفى.

٥١- اختلف العلماء في تفاسير التابعين هل تعدّ من المأثور أم لا؟ فمنهم من اعتبرها من المأثور، وحجتهم أنهم تلقوه من الصحابة غالبا، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي. انظر **مناهل العرفان**: ١٣/٢.

٥٢- انظر: **الإتقان** ـ النوع الثامن والسبعون ـ في معرفة شروط المفسر وآدابه: ٣٤٣/٤، و الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لشيخنا أبي شهبة رحمه الله تعالى، ص ٥٥-٥٨.

٥٣- انظر: أحمد بن محمد الشرقاوي، **مناهج المفسرين**، الرياض، ١٤٢٤هـ، ص ٥٥.

يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل.."، إلى أن يقول: "والنقل والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط"(٥٤).

حتى السيد محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى، الذي يمثّل المدرسة العقلانية في عصره، أقرّ بأهمية التفسير المأثور، فقد قال في مقدّمة **تفسير المنار**: "وأما الروايات المأثورة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير فمنها ما هو ضروري أيضاً، لأن ما صح من المرفوع لا يُقدَّم عليه شيء، ويليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم، والصحيح من هذا وذاك قليل"(٥٥).

وليس غرضنا هنا أن نتكلم عن الناحية الأولى، فقد سبق أن كان لنا حولها كلام في موضع آخر(٥٦)، إنما غرضنا أن نتكلم عن الناحية الثانية، كيف تكون عصمة من الانحراف في التفسير؟ فنقول وبالله تعالى التوفيق:

لا يخفى على من يعيش هذا الزمن، كثرة المستجدّات وسرعة التغيّرات، والتقدّم الهائل في مجالات العلوم المختلفة، ووسائل التقنية الحديثة، مما دفع بعض الباحثين إلى تلمّس كل جديد في كتاب الله تعالى، كأن القرآن دائرة معارف تفصيلية!! هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإن شهوة التجديد، والرغبة إلى السبق في الاكتشاف، دفعت أولئك الباحثين إلى التهجم على كتاب الله تعالى، وليّ عنق الآيات، بغية الوصول إلى تحقيق تلك الرغبات والمشتهيات.

من هنا أصبح لزاما على كل من خاض هذا الغمار، وأراد سلوك الطريق الصحيح، والعصمة من الانحراف، أن يلاحظ ذلك عن طريقين:

الأول: الوقوف عند الثوابت والمسلمات، مما استقر عليه العمل، وتلقته الأمة بالقبول عبر الأجيال، وأمثلة هذا كثيرة، سواء في التوحيد أو الأحكام، كالذي أخبرنا الله تعالى به عن ذاته وصفاته جل وعلا، أو ما بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم من المجملات كأوقات الصلاة ومقادير الزكاة ونحوها من العبادات، ومثل هذا ما ورد في الحدود والمعاملات، أو ما ورد عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم،

٥٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٣٤/١.

٥٥- انظر: محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، دار الفكر للطبعة والنشر والتوزيع: ٧/١، وقوله: قليل لا يسلم، بل صح من ذلك قدر لا بأس به.

٥٦- انظر: بحثنا المشار إليه قبل قليل.

من توضيح بعض المشكلات. فكل ما ثبت من هذا وصح النقل فيه، وجب الوقوف عنده وحرم تخطيه، وبذلك يسلم العقل من سلوك الشطط، والوقوع في الغلط.

الثاني: التأسّي به والنسج على منواله، بإضافة ما يمكن إضافته من المعارف والفهوم، بما لا يصادم المنقول ولا يعارضه، وذلك فيما يتسع له اللفظ، وقد أبلى الإعجاز العلمي في هذا بلاءً حسناً. خذ مثلا قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْآ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُوْنَ**﴾[٥٧]، ففي المأثور نجد أن الحاكم أخرج أثراً وصححه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: فتقت السماء بالغيث، وفتقت الأرض بالنبات[٥٨].

فهذا الأثر لا يمنع أن يضاف إليه ما توصّل إليه العلم الحديث في زماننا مما يسمّى بنظرية "لابلاس" أو نظرية "السديم" عند علماء الفلك، الذين يثبتون أن الشمس والكواكب والأرض كانت قطعة واحدة، وأن الشمس كانت كرة نارية، وهي في أثناء سيرها السريع انفصلت عنها أرضنا والكواكب السيارة الأخرى[٥٩]، فالسموات والأرض كانتا كتلة واحدة ملتصقتين، ثم فصلهما الله تعالى بقدرته القاهرة فصارتا على ما هي عليه الآن. فلا تعارض بين هذا وما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على فرض صحته، وما درج عليه أهل التفسير في القديم، لإمكان الجمع بين المعنيين، والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

٥٧- سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

٥٨- أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت طلحة واه (٤١٤/٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات، والفريابي وعبد بن حميد كما في **فتح القدير** للشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر: ٤٠٦/٣، وذكره ابن عطية: ١٤١/١٠ دون أن ينسبه إلى ابن عباس مستشهداً بقوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**﴾ الطارق ١١ و ١٢ وقال: وهذا قول حسن، يجمع العبرة وتعديد النعمة، والحجة بمحسوس بيّن، ويناسب قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾، أي من الماء الذي أوجد الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجّه الاعتبار.

٥٩- وتلك الكواكب تسعة مرتبة حسب قربها من الشمس، وهي: عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتون، ولكل منها مدار حسب تأثير الجاذبية، وهي تجري في الفلك، وهي تسعة أفلاك دون السموات المطبقة التي يعيش فيه الملائكة، والفلك استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء، أو هو مجراها وسرعة سيرها. انظر: **التفسير المنير**: ٤٤/١٧، و **آيات الخالق الكونية**، ص ١٠٤، ويحيى هارون، **المعجزات القرآنية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ١٦.

ومثله قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ** ﴾(٦٠)، ففي المأثور نجد أن ابن أبي حاتم أخرج أثراً عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يقدر على أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه(٦١). وأخرج عن عطاء الخراساني يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء(٦٢). وعلى ضوئه بنى المفسرون القدامى تفسيرهم لهذه الجملة القرآنية، حتى الإمام الرازي شيخ المفسرين بالمعقول يقول: والمعنى أنه في نفوره عن الإسلام وثقله عليه بمنزلة من تكلّف الصعود في السماء، فكما أن ذلك التكليف ثقيل على القلب، فكذلك الإيمان ثقيل على قلب الكافر(٦٣).

نقول: هذا التفسير وأمثاله صحيح، ولكنه لا يمنع أن يضاف إليه ما كشف عنه العلم الحديث في زماننا، فقد تبيّن أن الضغط الجوي يخف كلما ارتفع الإنسان في الجوّ حتى يتلاشى، وأن الإنسان كلما صعد في السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق(٦٤).

ومثله أيضاً ما توصّل إليه العلم الحديث من سرّ البصمات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ **بَلَى قَادِرِيْنَ عَلَى أَنْ نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ** ﴾(٦٥)، من أن البصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات، وتعلو الخطوط البارزة المسام العرقية، تتمادى هذه الخطوط وتتلوى وتتفرع عنها فروع لتأخذ في النهاية ـ وفي كل شخص ـ شكلا مميّزاً، وقد ثبت أنه لا يمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم حتى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة(٦٦) فسبحان الخلاّق العليم، وتبارك الله أحسن الخالقين!!

٦٠- سورة الأنعام، الآية: ١٢٥، وتمام الآية: ﴿ **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِيْنَ لاَ يُؤْمِنُوْنَ** ﴾.

٦١- أخرجه برقم ٨٩٠ بإسناد ضعيف: ٦٦٩/٢-٦٧٠.

٦٢- أخرجه برقم ٨٩١ بسند صحيح: ٦٧٠/٢.

٦٣- انظر: **التفسير الكبير**: ١٩٣/١٣.

٦٤- انظر: **الأساس في التفسير**: ١٧٦٣/٣، وذكر أن هذه معجزة عظيمة تشهد على أن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض. وانظر: بحوث الإعجاز العلمي.

٦٥- سورة القيامة، الآية: ٤.

٦٦- انظر: بحث " البصمات إعجاز وتحدي" للعميد عبد الله بن محمد اليوسف ضمن بحوث المؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الذي عقد في دبي بتاريخ ١-٣ صفر ١٤٢٥هـ/ ٢٢-٢٤ مارس ٢٠٠٤م.

وقس على هذا سائر ما ورد في تفسير الآيات الكونية من الأحاديث والآثار، بعد التثبت من أن ذلك قد نقل بالأسانيد الصحيحة. ففي هذا وأمثاله قد نجد أن اللفظ القرآني يتسع لهذه المعاني كلها، وقد تأتي معانٍ أخر في المستقبل مما لا نعلمه الآن، وهذا سرّ لا تجده في غير القرآن! !

وقد وردت مثل هذه الإضافات عن الصحابة والتابعين أنفسهم، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَكَأْسًا دِهَاقًا** ﴾(٦٧)، نجد أن ابن عباس قال في تفسيرها: دهاقا مملوءة، بينما قال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية. ولا منافاة بين هذه الأقوال والآية تحتملها، فتحمل عليها جميعا، ويكون كل قول لنوع من المعنى(٦٨). ونماذج هذا في تفاسير الصحابة رضي الله تعالى عنهم كثيرة، وما دام الأمر في مثل هذا فهو من الفهم الصحيح، والإضافة المحمودة.

ولذا فإن الكلام في أهمية التفسير المأثور، لا يعني الجمود عنده، وعدم التأمل فيما وراءه، ولو كان الأمر كذلك لما كان ثمّة مراحل في هذا اللون من التفسير. ومما ينبغي التنبيه إليه والتأكيد عليه هنا وجوب النظر في المأثور، فقد لا يراد به الحصر لمعنى الكلمة، ولا تحديد بيان المراد بها، بل قد يراد أهم الأنواع.

خذ مثلا كلمة الرمي التي وردت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في تفسير كلمة القوة في قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوْا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ** ﴾(٦٩)، فلا شك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أراد بالرمي أهم أنواع الأسلحة وأكثرها، نظيره قوله صلى الله عليه وسلم: "الحج عرفة"(٧٠)، و"الندم توبة"(٧١). فكما أن ذكر عرفة لا ينفي اعتبار الإحرام والطواف وغيرهما من أركان الحج، وكما أن ذكر الندم لا

٦٧- سورة النبأ، الآية: ٣٤.

٦٨- انظر: محمد العثمين، **أصول في التفسير**، مطبعة الحرمين، القاهرة، ص ٣٣.

٦٩- سورة الأنفال، الآية: ٦٠، والحديث أخرجه مسلم في **صحيحه** برقم ١٩١٧ عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال على منبره ثلاثا: "ألا إن القوة الرمي"، في كتاب الإمارة ـ باب: فضل الرمي والحثّ عليه، المطبعة المصرية ومكتبتها: ١٥٢٢/٣.

٧٠- أخرجه النسائي في **سننه** في فرض الوقوف بعرفة من حديث عبد الرحمن بن يعمر رضي الله تعالى عنه: ٢٥٦/٥، و الترمذي في **سننه** برقم ٨٨٩ في كتاب الحج باب: ٥٧ وقال: والعمل على حديث عبد الرحمن بن يعمر عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم: ٢٧٣/٣-٢٣٨، وأبو داود في **سننه** في المناسك بأطول منه برقم ١٩٤٩ باب من لم يدرك عرفة ١٩٦/٢، والحاكم في **المستدرك** كتاب التفسير: ٢٧٨/٢ وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي.

٧١- أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ٣٧٦/١، وفي النسخة المحققة برقم ٣٥٦٨ وقال الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعالى: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في كتاب **التوبة والإنابة مختصرا ومطولا**: ٢٤٣/٤.

الندم لا ينفي اعتبار الإقلاع عن المعصية والاستغفار من لوازم التوبة، كذلك فإن ذكر الرمي لا ينفي اعتبار أيّ نوع من أنواع الأسلحة. من هنا فإن إضافة مثل القوة الاقتصادية والسياسية والعلمية والصناعية ونحوها لا يعدّ تجاوزا لما ورد في تفسيرها من المأثور، بل هو إضافة حسنة ما دامت قد صدرت ممن توافرت فيه شروط التفسير(٧٢).

وهذا بخلاف ما إذا كان اللفظ لا يحتمل ذلك، ولذا فقد أخطأ من تجاوز تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم للظلم بالشرك في قوله تعالى: ﴿**الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُوْنَ**﴾(٧٣) كما جاء في **الصحيحين** عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿**الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ شق ذلك على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس كما تظنّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ**﴾(٧٤)،(٧٥).

أخطأ من تجاوز هذا إلى تفسيره بمطلق الذنوب(٧٦)، فإن نصّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على ذلك منع احتمال إرادة العموم، وفي تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم فائدة مهمّة وهي: أن المعاصي لا تُسمَّى شركا، وأن من لم يشرك بالله تعالى شيئاً فله الأمن وهو مهتد، بمعنى أنه آمن من التخليد في النار، ومهتد إلى طريق الجنة، كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى(٧٧). ولو كان المراد بذلك معنى الظلم على العموم لكان في ذلك حرج ومشقة على الأمة وأيّ حرج ومشقة!! فالحمد لله رب العالمين.

٧٢- انظر: عيادة بن أيوب الكبيسي، **أبرز أسس التعامل مع القرآن الكريم**، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، طبعة ثانية، ص ٨٦.

٧٣- سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

٧٤- سورة لقمان، الآية: ١٣.

٧٥- متفق عليه، أخرجه البخاري في **صحيحه** برقم ٣٢ في كتاب الإيمان ـ باب: ظلم دون ظلم: ١٨٣/١، ومسلم في **صحيحه** برقم ١٢٤ في كتاب الإيمان ـ باب: صدق الإيمان وإخلاصه: ١١٤/١-١١٥.

٧٦- جاء هذا في بحث للدكتور محمد كامل حسين نشر في **مجلة اللغة العربية**: ٨١/١٣.

٧٧- انظر: ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، دار أبي حيان، القاهرة: ١٨٥/١، و **شرح النووي**، المطبعة المصرية ومكتبتها: ١٤٣/٢.

إن خير ما يعصم من الانحراف في فهم كتاب الله تعالى، ويعين على سلامة التفكير والتفسير: هو التفسير المأثور ـ إن وجد ـ إذ هو العصمة من الوقوع في الخلل والزلل، أما ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فالأمر فيه على غاية من الوضوح، وأما ما جاء عن الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ فهم أدرى بمراد الله تعالى، لما لهم من عقول نيّرة، وأفهام ثاقبة، واطلاع واسع على أسباب النزول، ومنهج سليم في الفهم والاستنباط، ومعرفة لغوية شاملة، مع ما هم عليه من تقوى ونور وبصيرة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: "وهم ـ أي الصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبط به حكم، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا"(٧٨).

المأثور في الآيات الكونية(٧٩):

من المعلوم أن القرآن الكريم قد اشتمل على آيات كثيرة تتحدّث عن الكون ودقائقه، وما أودع الله تعالى فيه من الحكم والأسرار، وما فيه من نظام وسنن. ومن المعلوم ـ أيضاً ـ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يعن بتفسير الآيات الكونية عنايته بتفسير آيات الأحكام والأخلاق والمعاملات، وذلك لحكم كثيرة منها:

أن القرآن كتاب هداية، فكانت مهمّة النبيّ صلى الله عليه وسلم الأساسية منصبّة على هذا الجانب، وذلك ببيان الآيات المشتملة على الأوامر والنواهي والبشارة والإنذار والترغيب والترهيب، حيث إن الحاجة إليها أشدّ من ذكر تفاصيل بداية الخلق والتكوين في السموات والأرض والكشف عن نظام الكون ودقائقه وسننه التي يسير بموجبها، إذ الإيمان بمضمونها بشكل عام كاف، بخلاف التكاليف الشرعية التي تحد من شهوات الإنسان وتلزمه بالالتزام بمنهج معيّن في الفكر والسلوك والعادات، مما يقتضي البيان والتوضيح، وإزالة الشبهات(٨٠).

وقد أشار إلى هذا الأستاذ الأديب مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال ـ وهو يتحدث عن عدم تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم لكل القرآن ـ: "وهذا وحده يجعل كل منصف

٧٨- انظر: ابن الصلاح، **علوم الحديث**، دار الفكر، بيروت، ص ٢٦٣.

٧٩- هذا موضوع مهم يحتاج إلى دراسة معمقة، ونحن ننوي كتابة بحث بعنوان: المأثور في الآيات الكونية ـ رواية ودراية، فنسأل الله تعالى أن ييسر ذلك.

٨٠- انظر: **مناهج المفسرين**، باختصار وتصرف ص ٣٥ فما بعدها.

يقول: أشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول، إذ لو كان صلى الله عليه وسلم فسّر للعرب بما يحتمله زمنهم، وتطيقه أفهامهم، لجمد القرآن جمودا تهدمه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها، فإن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم نص قاطع، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسّر كتاب الإنسانية فتأمل حكمة ذلك السكوت، فهي إعجاز لا يكابر فيه إلا من قلع مُخُّهُ من رأسه"(٨١).

وهذا كلام جيّد وصحيح، إذ لو فسّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه الآيات الكونية، فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يفسرها على حقيقتها، فيكون صدّاً لمن لم يؤمن عن الإيمان، وزعزعة لنفوس ضعفاء الإيمان، وذلك لأمد غير قليل من الزمان، وإما أن يفسره على مقدار فهم أهل زمانه فيجمد القرآن كما ذكر الرافعي. وما ورد من ذلك فقد تولاّه العلماء بالنقد والتوضيح، سواء في ذلك نقد المتن أم السند، كما هو معلوم عند أهل الصنعة.

الهدم والبناء:

لا بد لنا ونحن نتكلم في أهمية التفسير المأثور من أن نفرّق بين الهدم والبناء، وذلك: أن وجوب الأخذ بالمأثور لا يعني الجمود عليه، والوقوف عنده، ولكن يعني الانطلاق منه ـ كما تقدّم ـ دون تجاوزه، ذاك أن تخطي ذلك التفسير بعد ثبوته، سيكون بمثابة من يبذر في أرض سبخة، أو يسقي بماء ملح، وهذا ما ابتليت به الأمة، ممن يريد الإبداع دون تاريخ، ويدعي التجديد دون قديم، ومن المعلوم: أنه لا يبدع من لا تاريخ له، ولا يجدد من لا أصل له(٨٢).

إن دعاة ما يُسمّى بالقراءة الجديدة للقرآن الكريم، لم يبدؤوا من الصفر، ولكن كان لذلك تمهيد حمل لواءه بعض أبناء هذه الأمة، من رجال المدرسة العقلانية، الذين عزفوا عن الصحيح من المأثور، بدعوى التجديد، فكان في ذلك فتح باب شر على الأمة، سوغ لآخرين أن يسرّبوا إلينا ما يسمّى بالهرمنوطيقيا(٨٣)، مما هو غريب عن ثقافتنا فأتوا بالأمر العجاب، ونسفوا ما استقرّ عليه الإجماع.

٨١- انظر: محمد صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، تحقيق عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ص ١٠ هامش ١.

٨٢- انظر: عبد الله بن يوسف الجديع، **المقدّمات الأساسية في علوم القرآن**، مؤسسة الريان، بيروت، ص ٣١٣.

٨٣- الهرمنوطيقيا تعني القراءة الجديدة للقرآن والنصوص الدينية، بمعنى إطلاق الحرية لقارئ النص في تفسيره دون الاحتكام إلى اللغة التي جاء بها، والسنّة الشارحة للقرآن، وما أطبق عليه علماء التفسير في شتى العصور. انظر بحث للشيخ حسن الجواهري ص٣، المقدّم إلى المجمع الفقهي في دورته السادسة عشرة.

فهذا المهندس شحرور ـ مثلاً ـ يؤدي به الخروج على المأثور إلى تخبط في الفهم لا نهاية له ولا حدود، بل قد أتى بما يستحيى من ذكره، فيقول في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُبْدِيْنَ زِيْنَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِـخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوْبِـهِنَّ**﴾: إن جسد المرأة كله زينة، والزينة هنا حتما ليست المكياج والحلي وما شابه ذلك، وإنما هي جسد المرأة كله، ثم يقسم الجسد إلى قسمين: قسم ظاهر بالخلق، وهو ما أظهره الله تعالى في خلقها كالرأس والبطن والظهر والرجلين واليدين، وقسم غير ظاهر بالخلق، وهو ما أخفاه الله في بنية المرأة وتصميمها، وهو الجيوب المرادة بالآية الكريمة، فالجيوب في المرأة ـ على زعمه ـ لها طبقتان أو طبقتان مع خرق، وهي ما بين الثديين، وتحت الثديين وتحت الإبطين والفرج والإليتين، وهذه كلها جيوب، فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها، ولذا قال تعالى: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِـخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوْبِـهِنَّ**﴾!!

ثم يقول: إن السبب في ذلك النهي ﴿**وَلاَ يَضْرِبْنَ بِـأَرْجُلِهِنَّ**﴾ هو لكي لا يعلم ما يخفين من زينتهن ـ وهنا الكلام عن الزينة المخفية وهو الجيوب ـ لأنها لا يمكن أن تعلم إلا إذا أرادت المرأة ذلك، فهذا يعني أن الله منع المرأة المؤمنة من العمل والسعي "الضرب" بشكل يظهر جيوبها أو بعضها، كأن تعمل عارضة "ستربتيز" أو تقوم برقصات تظهر فيها الجيوب أو بعضها ولكنه لم يحرّم الرقص بشكل مطلق بل حرّم عليها إظهار الجيوب أو بعضها بشكل إرادي وهذا لا يحصل إلا من أجل كسب المال أو على شواطئ البحار(٨٤).

فانظر كيف نسف ما استقر عليه إجماع المسلمين على مدى أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان؟ منذ فسّرته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها حين قالت: "يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِـخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوْبِـهِنَّ**﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها"(٨٥). فلو تأمل ما ورد من المأثور في هذا المجال لاحترام عقله ووقف عنده، وما سمح لقلمه أن يخط مثل هذا الهراء(٨٦)، المؤدي إلى الهدم والإلغاء. وإذ لم يحترم هو عقله ولا عقول العقلاء، فليس أمام علماء الأمة

٨٤- انظر: محمد شحرور، **الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة**، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط/٦، ص ٦١٣.

٨٥- أخرجه البخاري في **صحيحه** برقم ٤٧٥٨ في كتاب التفسير: ٥١٠/١٠.

٨٦- انظر إضافة إلى ما ذكره البخاري الآثار التي أخرجها ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، مصر: ٩٧/١٨، وابن أبي حاتم الرازي: ٢٨٠/٢ في تفسير سورة النور.

الأمة إلا أن ينبذوا كلامه كما يقول الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة إلى الحريق وإلى مجمع القمامات(٨٧).

ومثله من فسّر كلمة ﴿مَوْقُوْتًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾(٨٨)، بالوقت الذي ينتهي إليه المسلم ، فيتهيّأ ليأخذ صلاته الفردية من ربّه بلا واسطة، وبذلك يستطيع أن يعيش فوق قوانين الجماعة(٨٩).

وهكذا يضرب باللغة والآثار الواردة عن السلف عرض الحائط، قال الشوكاني في تفسيرها: ﴿مَوْقُوْتًا﴾: أي محدودا معيّنا، يقال: وقته فهو موقوت، ووقته فهو موقت، والمعنى: إن الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة، لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعي من نوم أو سهو أو نحوهما(٩٠).

وأما الآثار: فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿مَوْقُوْتًا﴾ يعني مفروضا، ومثله عن علي بن الحسين ومحمد بن علي وسالم بن عبد الله ومجاهد والحسن والسدي ومقاتل بن حيان. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿مَوْقُوْتًا﴾: قال: إن للصلاة وقتا كوقت الحج، وعن زيد بن أسلم قال: منجما كلما مضى نجم جاء نجم، يقول: كلما مضى وقت جاء وقت(٩١).

٨٧- لقد نفذ صبر الشيخ رحمه الله تعالى وهو يتابع هراء شحرور فقال في آخر الكتاب ص٢٣٤: إنني لأخجل من القارئ ومن نفسي حينما أضع مثل هذا المجون الفكري أو الجنون الكفري موضع التحليل والنقد والتفنيد، إذ لا يستحق لدى العقلاء بل لدى ذوي التفكير العادي أكثر من النبذ إلى الحريق ، أو إلى مجمع القمامات، وعذري في كشف أباطيله وزيوفه وتعرية مقاصده وغاياته، أننا في مجتمعات بشرية يوجد فيها من يقتاتون على أرجاس القمامات الفكرية، لما لهم فيها من أهواء وشهوات، وهذا الأمر يجعلنا مضطرين إلى تحذيرهم من أضرارها وأخطارها، وكشف أرجاسها، وتوعيتهم بما فيه صحة لهم، وبما فيه داء وبيل لأفكارهم ونفوسهم وقلوبهم.

٨٨- سورة النساء، الآية: ١٠٣.

٨٩- رسالة الصلاة لمحمود محمد طه، نقلا عن بحث الدكتور عبد الجبار النجار ص ١٨، المقدّم إلى المجمع الفقهي في دورته السادسة عشرة.

٩٠- انظر: **فتح القدير**: ٥١٠/١.

٩١- أثر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما صحيح أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر فيه بقية الآثار (من رقم ٤٠٣٢ – ٤٠٤٢)، وانظر أثر ابن مسعود في **تفسير عبد الرزاق** وإسناده صحيح، تحقيق مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض: ١٧٢/١، وانظر أثر مجاهد عند الطبري في **تفسيره** برقم ١٠٣٩٢، وإسناده صحيح، وعنده أيضاً أثر الحسن بإسناد صحيح برقم ١٠٣٩١.

وثمّة نماذج كثيرة لمثل هذا الهراء صدرت عن رجال هذه المدرسة ممن يدعون إلى ما يسمى بالقراءة الجديدة للقرآن الكريم، لو أخذت به الأمة ـ وما كان لها أن تأخذ ـ لانسلخت من دينها، ولأسس إسلام جديد غير الإسلام الذي جاء به محمد خاتم النبيّين صلى الله عليه وسلم.

والحق إن هذا الضلال والإضلال لم يكن وليد هذا الزمن، إنما له جذور تمتد إلى زمن بعيد ـ كما ذكرنا ـ، فالباطنية مثلا أبلوا شرّ بلاء في هذا المضمار، ففي قوله تعالى: ﴿ **يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوْا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوْا بِـرُؤُوْسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوْا** ﴾[٩٢] يقولون: معنى الجنابة أنها مبادرة المستجيب بإفشاء السرّ قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى الطهارة التبرّي من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام، ومعنى التيمّم الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعي الإمام!!!

وهكذا يمشون في إلغاء ظاهر النص الكريم، زاعمين أن هذا هو المراد من كلام الله تعالى، وقد أحسن الشيخ الزرقاني رحمه الله تعالى فإنه بعد أن نقل ما تقدّم قال: وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون، لأنها تؤدي إلى نقض بناء الشريعة حجرا حجرا، وإلى الخروج من ربقة الإسلام وحل عراه عروة عروة، ولأنها تجعل القرآن والسنّة فوضى فاحشة يقال فيهما ما شاء الهوى أن يقال، كأنهما لغو من الكلام، أو كلأ مباح للبهائم والأنعام، إلى أن يقول: وما دام لكل واحد أن يفهم من القرآن ما شاء له الهوى والشهوة دون اعتصام بالشريعة، ولا التزام لقواعد اللغة، لم يعد القرآن قرآنا، وإنما هو الهوى والشهوة فحسب.

ولهذا شرطنا في التفسير ما شرطنا، وفي مقدّمة شروطه التزام قوانين الشريعة، والتزام قواعد اللغة العربية، أما التزام قوانين الشريعة فلكيلا تتهافت النصوص وتتناقض التعاليم، وأما التزام قواعد اللغة فلأن القرآن نزل بلسان عربي مبين[٩٣].

وبهذا تتضح لنا أهمية التفسير بالمأثور، وأنه العصمة من كثير من الانحرافات التفسيرية، وأنه لا يصح تجاوزه بأيّ حال متى ما وجد وصح، وأن كل من تجاوز ذلك من الباحثين فقد قال غلطا، وسلك شططا، يجب على أهل الذكر المتبصّرين أن يردوا عليه ويقوموه.

والله تعالى هو الموفق والمستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٩٢- سورة النساء، الآية: ٦.

٩٣- انظر: **مناهل العرفان**: ٢/٦٣-٦٤.

الخاتمة:

نسأل الله تعالى حسنها، نذكر هنا أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، بشكل نقاط محددة، على النحو الآتي:

- إن الثروة التفسيرية الضخمة التي تركها لنا ابن أبي حاتم الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره **المسند**، إنما نتجت من حرصه الشديد على التحصيل، وصبره الدؤوب على التتبع، مع ما كان يتحلّى به من خشية لله وتقوى.
- وإن نشر مآثر السلف وفضائلهم، لخير ما تتربّى عليه الأجيال المسلمة عبر القرون.
- بعد دراسة التفسير **المسند** لابن أبي حاتم الرازي، ومقارنته بغيره من كتب التفسير بالمأثور، تبيّن أنه ينبغي أن يتصدر قائمة تلك الكتب، لما له من منهج فريد متميّز.
- من خلال تعريف التفسير بالمأثور، ومعرفة مصادره الثلاثة ـ القرآن والسنّة وأقوال الصحابة ـ تجلّت لنا أهميته، وخطر تجاوزه أو العدول عنه متى ما كان صحيحا ثابتا.
- وتبيّن لنا ـ أيضاً ـ أن التفسير بالمأثور قد امتزج فيه الصحيح بالسقيم، مما اقتضى نقداً وغربلة، سواء في ذلك الأسانيد والمتون.
- ثم إن لزوم الأخذ بالتفسير بالمأثور لا يعني الجمود عنده، إنما يعني الانطلاق منه، والبناء عليه متى ما اتسع اللفظ القرآني له، وقد رأينا أن اللفظ الكريم كثيراً ما يتسع لذلك.
- ولهذا فقد كانت الحكمة النبوية أن يعنى صلى الله عليه وسلم بتفسير آيات الأحكام أكثر من عنايته بتفسير الآيات الكونية.
- إن التحلل من الرجوع إلى التفسير بالمأثور وإغفاله، أدى إلى تخبط في الفهم بما لا يقره عقل ولا لغة ولا شرع، وأمثلة هذا الشطط والتحدي الخطير، قد كثرت هذه الأيام مما ينذر بشر مستطير، يستدعي الوقوف بوجهه بحزم وقوة، ومن ذلك إحياء مدارس التفسير بالمأثور، والكتابة فيها ونشرها، إذ هو خير ما يعصم من تلك الانحرافات التفسيرية الخطيرة.

* * * *